د. طارق شمس

رحلة البندقية إلى الصين في العصور الوسطى

ماركوبولو وقوبلاي خان (1271 – 1295م)

عام 1295م، وصل ثلاثة رجال إلى مدينة البندقية ، " يحملون متاعهم على ظهورهم ، ويلبسون أسمالاً بالية ، ويعلوهم العثر(ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 218)، وقد ادعى هؤلاء الرجال أنهم من البندقية، وأنهم قد غادروها قبل ستة وعشرين عاماً، وأخذوا يلقون على مسامع الناس، القصص عن رحلتهم الطويلة التي أوصلتهم إلى بلاط أعظم ملك في العالم.

كان هذا ماركوبولو ، الرحالة المشهور في العصور الوسطى، الذي وصل إلى الصين، وعمل في بلاط قوبلاي خان حاكم الصين المغولي، والذي لقبه أهالي البندقية بـ " ماركو الملايين" ، بسبب قصصه العجيبة المليئة بالأعداد الكبيرة(ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 219).

ماركوبولو المستكشف الإيطالي

ورافقت علامات الاستفهام قصص هذا الرحالة ، فما هي حقيقة وصوله إلى الصين، البلد الأبعد بالنسبة لأوروبا ، وتحوله إلى مستشار للإمبراطور المغولي، حفيد جنكيزخان، قوبلاي خان.

وعندما طلب من ماركو بولو قبل وفاته ، الاجابة عن هذه الأسئلة ، قال: " إني لم أذكر في كتابي نصف ما شاهدته"(ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 272).

1- العلاقات الأوروبية الصينية.

كان لطول المسافة التي فصلت بين اوروبا والصين بالاضافة إلى أن وجود الامبراطورية البارثية(الدولة البارثية : تنسب إلى البارثيون أو الغارثيين ، وهم فرع من الايرانيين) ، الفاصل بين املاك روما وبلاد الصين، قد منع قيام علاقات مباشرة بين الدولتين ، اللهم إلا عبر شعوب أخرى كانت تربط بينهما، عبر شبكة الطرق التجارية التي قطعت وسط آسيا ، مروراً بالصحاري والوديان والجبال، التي جعلت التواصل بين الدولتين أمراً مستحيلاً حينها(ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 218.5- المرجع نفسه، ص 160) لم يعرف الرومان وجود دولة توازي دولتهم، من حيث الحجم والقوة والقدرات الاقتصادية.

إلا ان بعض المصادر القليلة ، أشارت إلى شعوب الشرق الأقصى التي يأتي منها الحرير، وذكرت هذه المصادر ما أطلق عليهم إسم " السيرين " ومعناها " شعب الحرير" ، حيث ظن الرومان أن هؤلاء يحصدون الحرير من غابات تقع على " الطرف الخارجي لآسيا"(- ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 218.5- المرجع نفسه، ص 162).

كما أورد المؤرخ الروماني " فلوروس " ، عن سفراء وصلوا إلى روما ، ذكر منهم " السيريون والهنود ، وهم الذين يقطنون مباشرة بجوار الشمس"(– ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 218.5- المرجع نفسه، ص 163).

أما بلاد هؤلاء " السيريين " فيوضحه المؤلف والفيلسوف الروماني بليني الأكبر (25– 79م) ، فيعين مكان إقامتهم في شمال سلسلة جبال الهملايا ، في إقليم " تاريم " وهو يقع في إقليم الإيغور المستقل حالياً غرب الصين(– ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 218.5- المرجع نفسه، ص 164).

وهكذا ، بقيت معلومات الرومان عن الصين غير واضحة ، إلى أن تمكن التجار من تبيان بعض حقائق الصين، فالجدير ذكره ، إلى ان فترة حكم الامبراطور " أوغسطس قيصر " إزدهرت بالتجارة البحرية التي ربطت بين العالم الروماني والهند، حيث يذكر أن حوالي المائة وعشرين سفينة كانت تنطلق من مصر باتجاه الشرق الأقصى، لتكون بدايات التأسيس للعلاقة التي ربطت بين اوروبا والصين وليتحول الحرير الصيني، إلى أبرز انواع البضائع التي أسست لعلاقات تجارية وسياسية فيما بعد بين العالمين الشرقي والغربي ، وفتحت أعين أوروبا على الشرق الأقصى(ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 218.5- المرجع نفسه، ص 165).

بدأ التجار الرومان يكتشفون شرق آسيا، فيورد أحدهم عام (70م) عن منطقة

تقع خلف نهر الغانج ، ينتج فيها الحرير ليصدّر عبر إقليم "تاريم"(الثقافة العالمية ص 165).

إلا ان هذا المكان ، الذي ينتج الحرير بقي لغزاً ، فإمكانية الوصول إلى الصين براً ، كانت ممنوعة من قبل " الباريثون " الذين منعوا التجار الرومان من المرور عبر شرق إيران، وذلك بهدف الحفاظ على احتكارهم تجارة الحرير الصيني.

وعلى الرغم من محاولة القائد العسكري الصيني " بان شاوي " من الوصول إلى دولة " البارثيين " ومحاولات الرومان من خلال الامبراطور " تراجان " عام 116م ، من القيام بنفس المهمة من جهة الغرب ، إلا أن القائدان فشلا في مهمتهما ، كما فشلت إمكانية التواصل المباشر بين الدولتين(ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 218.5- المرجع نفسه، ص 165- 166).

الامبراطور تراجان

إلا ان محاولات القائد " بان شاوي " أفلحت في إكتشاف وجود دولة عظمى في الغرب، أطلقوا عليها إسم " داكن " أي " الصين العظيمة " وذلك من خلال التواصل مع رسل الممالك التي كانت على علاقة بالامبراطورية الرومانية(ول ديورانت ، قصة الحضارة، بيروت : دار الفكر ، د.ت ، 4 : 218.5- المرجع نفسه، ص 167) ، وبغض النظر عن بعض أنواع التواصل القليلة التي حصلت بين بعض التجار وملك " الهان"(هي مجموعة قبائل رعوية ، كانت في العصر الروماني بعيدة جداً عن الدولة الرومانية عاشت في سهول آسيا ، تنتقل من مرعى إلى

آخر مع قطعان الخيل والماشية – سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، بيروت ، دار النهضة العربية) ، إلا أن التواصل المباشر كان يتم فقط عبر التجارة البحرية وبشكل قليل ونادر.

وتورد كتب تاريخ " الهان " ، عن العام 166م ، وصول مجموعة من الرومان إلى فيتنام، لينقلوا بعدها إلى العاصمة الصينية لمقابلة الامبراطور بشكل رسمي ، ويبدو من خلال الأحداث ، ان هذه المجموعة لم تكن مرسلة بشكل رسمي من الامبراطورية الرومانية وأن الصينيين اعتقلوهم ونقلوهم إلى امبراطورهم(الثقافة العالمية– المرجع السابق ، ص 173 – 174)..

كما وردت اخبار أخرى عن وصول تجار أوروبيين إلى الصين، إلا انها تبقى ضمن إطار العلاقات النفعية ليس إلا(الثقافة العالمية ، ص 174 – 175).

ومع قيام الدولة البيزنطية ، سعى الامبراطور " جستنيان " (527–565م) إلى الحصول على سر صناعة الحرير عن طريق الرهبان النساطرة ، الذين كانوا قد أسسوا لأنفسهم تجمعات في الدولة الساسانية ، وكانوا يجوبون طريق الحرير، فدخلوا الصين وترجموا الكتاب المقدس إلى اللغة الصينية، فطلب منهم جستنيان الحصول على اسرار صناعة الحرير ، ويذكر أن بعض هؤلاء الرهبان قصد بلاد الصين واستطاع نقل بذور من التوت وبيض دودة القز ، من خلال إخفائه داخل عكازات مجوفة ، إلا أن صناعة الحرير البيزنطية ، بقيت على الرغم من ذلك رديئة.

لتحافظ بالتالي، طريق الحرير على أهميتها ودورها ، طيلة سبعماية عام، حتى بدأ عصر تجارة البندقية ، ورحلات المستكشفين ومنهم ماركو بولو(الثقافة العالمية، المرجع نفسه ، ص 171).

2– ماركو بولو والطريق إلى الصين.

ولد ماركو بولو عام 1254م ، في مدينة البندقية، من عائلة من النبلاء، وينقل أن والده نيقولو وعمه مافيو ، قد تعرفا على قوبلاي خان ، القاآن المغولي ، من خلال علاقتهم التجارية مع الصين (ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الألف الكتاب الثاني ، 2002 ، 1: 12 ص 177) .

وكان ذلك على أثر إنضمام الأخوين بولو إلى مبعوثي الخان المغولي في مدينة بخارى، حيث كانا يتواجدان فرافقا بعثة الخان عاماً كاملاً حتى وصلا إلى بلاط الخان، الذي أحسن استقبالهما، وأستفاد من معلوماتهما

عن اوروبا والحياة فيها ، وعن ملوكها والبابا والكنيسة، ومدينة روما وما يجري فيها. ليبعث بهما الخان بعد ذلك ، كسفارة من قبله إلى البابا، طالباً منه " مائة مُبشّر "(بقي كرسي البابا شاغراً في روما ثلاث سنوات ، بعد وفاة البابا كليمنص الرابع (ت 1268م) ، واختير خلفاً له البابا غريغور العاشر(ت 1276م)، وقد عرفت هذه الفترة صراعاً دينياً بين كنيسة روما وكنيسة بيزنطيا ، عقدت خلالها عدة مجامع دينية ، كما شهدت صراعاً سياسياً بين اوروبا والقسطنطينية) بالاضافة إلى زيت من قنديل الناووس المقدس(ماركو بولو – المرجع السابق ، 1 : 15).

ومع عودة الأخوين بولو إلى إيطاليا ، وجدا أن البابا قد مات ، فقصدا البندقية ، بانتظار أختيار بابا جديد ، وفي البندقية كان ماركو بولو قد بلغ من العمر الخامسة عشر وتوفيت والدته، فقرر والده نيقولو أن يصحبه معه في رحلة العودة إلى قوبلاي خان عام 1271م ، مع الزيت المقدس الذي حصلوا عليه ، مع عدم تمكنهم من اصطحاب أي مُبشّر ، كون أن الكنيسة كانت منقسمة حينها(نجيب اسطيفان، صراعات الكنيسة وسقوط القسطنطينية، دمشق ، دار التكوين ، ط1، 2011 ،ص 236– 237).

ألا أنهما اكتفيا برسالة من المندوب البابوي في عكا(ماركو بولو ، المصدر السابق ، 1: 15 – 16) وبعد ثلاث سنوات وصل آل بولو الثلاثة إلى قوبلاي خان عام 1275م ، وهناك أعجب الخان المغولي بماركو بولو، فكلفه بعدة مهمات رسمية من قبله، فكان مبعوثه إلى الأقاليم الصينية المختلفة.

حيث أن الخان الذي كان يعتبر رجاله " حمقى وأغبياء ، لعجزهم عن إبلاغه بأي شيء عن " عادات وأعراق " الأقاليم التي كانوا يزورونها " فماركو بولو ، أثار إهتمام الخان برواياته وقصصه ، عن مشاهداته التي كان ينقلها بتفصيل للخان الأعظم(فرنسيس وود ، المرجع نفسه ، ص 23).

وخلال السبعة عشر عاماً التي قضاها ماركو بولو عند قوبلاي خان، نقل مشاهداته التي ظهرت من خلال كتابه الذي يعتبر من أبرز كتب الأسفار ، كما يعتبر مصدراً في العصور الوسطى عن بعض مناطق آسيا الوسطى والدولة الفارسية ، وعن الصين الكبرى في عهد الأسرة المغولية(ماركو بولو ، المرجع السابق، 1 : 17 – 20.) التي بدأت بإحتلال الصين مع العام 1257 م حتى العام 1368م وسقوط العاصمة بكين بيد أسرة منيغ الصينية(747)، ونهاية الحكم المغولي في الصين(دانييل إليسيف ،تاريخ الصين ، دمشق : منشورات وزارة الثقافة ، 2007 ، ص109و 125).

1-<u>قوبلاي خان (658- 693 هـ / 1260 – 1294م)</u>

هو قوبلاي ابن تولوي ابن جنكيز خان (رشيد الدين الهمذاني، جامع التواريخ ، ترجمة فؤاد الصياد ، بيروت : دار النهضة العربية ، ط1 ، 1983 ، ص 237) ، كان أخاه منكوقاآن قد عينه هو وأخوه هولاكو، للسيطرة على البلاد المحيطة بالدولة المغولية ، فكان نصيب هولاكو المنطقة الغربية من بلاد المغول، فتوسع في فتوحاته حتى دخل بغداد وأسقط الخلافة العباسية عام 656هـ / 1258م .

أما قوبلاي ، فكان عليه السيطرة على البلاد الشرقية وممالك الخطا(الخطا : هي قبائل كانت تقيم إلى الجنوب من منشوريا ، استطاعت فرض الجزية على أسرة سونج الصينية ، وتوسع نفوذها حتى سيطرت على إقليم الصين الشمالي.إلى ان سقطت عام 1125م) فتوسع حتى دخل الصين (رشيد الدين الهمذاني ، المصدر السابق ، ص 243).

ومع موت منكوقاآن ، وقع الخلاف بين أخوته حول من يتسلم السلطة من بعده ، وكان أحد الأخوة " أريق بوقا " وهو الأصغر، ينوب عن منكوقاآن في مدينة قراقورم (قراقورم : عاصمة جنكيز خان ، تقع إلى الشمال من الصين ، عباس العزاوي ، تاريخ المغول، أبو ظبي : المجمع الثقافي، 2000، ص 19) عاصمة المغول، فلما وصل إليه خبر موت القاآن ، اعلن نفسه خاناً بمساندة

عدد من افراد الأسرة المغولية الحاكمة ، خصوصاً وأن أبناء منكوقاآن كانوا لا يزالون صغاراً في السن.

إلا أن جيش الصين المغولي طالب بقوبلاي خاناً ، وإنقسم المغول بين الأخوين ، لينعقد مجلسين وطنيين للمغول (القوريلتاي) أحدهما عين قوبلاي خاناً ، والآخر اختار أريق بوقا عام 1260 م . (ستيفن رنيسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت : دار الثقافة ، 1997 ، 3: 530– 531).

إلا أن قوبلاي وبمساندة الجيش وقادته ، استطاع أن ينتصر على اخيه وأوقعه في الأسر عام 662هـ / 1263 م (ستيفن رنسيمان ، المصدر نفسه ، 3 : 531).

لم يتخذ قوبلاي خان من قراقورم عاصمة له، بل تحول إلى الجنوب، حيث أعاد بناء بكين عام 1267 م، وغيّر اسمها من عاصمة الشمال(بكين) إلى " خان باليك " [مدينة الخان](دانييل إليسيف ، تاريخ الصين ، ترجمة يوسف الشام، دمشق ، وزارة الثقافة ، 2007 ، ص 110– 111) وأخذ يعمل للسيطرة على باقي أنحاء الصين وما يجاورها من البلاد ، مثل فيتنام وكوريا واليابان.

كما اعلن قوبلاي خان نفسه خليفة لأباطرة الصين، وأسس أسرة يو – وان عام 1279 م(دانييل إليسيف ، تاريخ الصين ، ترجمة يوسف الشام، دمشق ، وزارة الثقافة ، 2007 ، ص 115) ،وتبنى حضارة الصين، التي كان متأثراً بها، وهو بذلك يكون قد تخلى عن قوانين جنكيز خان المغولية(فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، بيروت : دار النهضة العربية، د. ت ، ص 217).

واستطاع قوبلاي خان، وبعد عشرين عاماً من الحروب المتواصلة ، أن يسيطر على اقاليم الصين الجنوبية ويقضي على اسرة " سونج " الصينية ، عام 678هـ/ 1288 م(فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، بيروت : دار النهضة العربية، د. ت ، ص 217).

وأولى الروابط التي تشكلت بين قوبلاي خان وأوروبا ، كانت عبر رحلات آل بولو إلى الصين، وخدمات ماركو بولو للخان ، والتي اعتبرها المؤرخون الغربيون ، اولى العلاقات مع أسرة صينية حليفة للغرب المسيحي(دانييل إليسيف ، تاريخ الصين ، المرجع السابق ، ص 116)

3- ماركو بولو وقوبلاي خان : نظرة الغرب على الشرق.

يبدأ ماركو بولو بالتعريف بالخان المغولي قوبلاي ، البالغ من العمر الخامسة والثمانين في زمن الرحالة البندقي ، فيصفه قائلاً : " لم يكن فحسب شجاعاً مقداماً في القتال ، ولكنه يُعدَّ في شؤون الحكمة والعدالة والمهارة العسكرية ، أكفأ وأنجح قائد قاد التتار – الدهر كله"(ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، المرجع السابق، 2: 12).

وفي كتابه ، يظهر ماركو بولو ، إحترام قوبلاي خان للديانة المسيحية، فهو يستقبل آل بولو الثلاثة ، ويُسرُ برسالة البابا جريجوري وبهداياه ، " وتلقى بالتوقير الواجب الزيت المجلوب من القبر المقدس ، ثم أصدر تعليماته بالاحتفاظ به بعناية ملؤها التقوى"(ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، المرجع السابق، 1: 41).

بعدها يتعرف على ماركو بولو، ويضمه إلى أتباع الشرف من ضمن حاشيته(ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، المرجع السابق، 1: 41).

ويتعلم ماركو بولو " آداب التتار وأعرافهم ... وحذق أربع لغات مختلفة تمكن منها قراءة وكتابة " (ماركو بولو ، رحلات ماركو بولو ، المرجع السابق 1. 41).

في الواقع فإن البلاط المغولي ، الذي أظهر تأييده للمسيحية ، أثار الكثير من آمال حكام أوروبا ، الذين اهتموا بتطوير العلاقة معه، وكان لإزدهار التجارة ، على ما عُرف بطريق الحرير، الذي كان يمر بوسط آسيا ، وبلاد فارس ، وأرمينيا وصولاً إلى الصين ، أن ساهم في

ظهور التجار الأوروبين في تلك المناطق، وخصوصاً في فارس ، فظهرت المحطات التجارية الايطالية في تبريز ، التي وصلت إليها البضائع من وسط آسيا والشرق الأقصى ، كما تنقلت السفن بين الصين والخليج العربي، محملة بالبضائع.

هذا التواصل التجاري ، بين الشرق والغرب، رافقه تبادل للهدايا بين حكام أوروبا والخان المغولي قوبيلاي ، عبر السفارات التي تبودلت بين الطرفين ، بالاضافة إلى الرحلات التي قام بها التجار الغربيون إلى تلك المناطق في الصين (برتولو شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، ترجمة خالد أسعد عيسى ، دمشق : دار حسان للطباعة والنشر ، ط1 1982 ، ص 69) لذلك نجحت رحلة ماركو بولو ، التي كانت صلة وصل بين هذين العالمين ، الغرب والشرق ، ولاقت قصصه رواجاً في الغرب، فكانت كتاباته التي وصفت ثروات الشرق وغناه أثرها الكبير في تشجيع عدد من الرحالة والمستكشفين الغربيين على المغامرة في اجتياز مجاهل آسيا ، والبحث عن أفضل وأسهل الطرق للوصول إلى الشرق الأقصى والهند مما ساهم في اكتشاف القارة الأميركية (– حافظ أحمد حمدي ، الدولة الخوارزمية والمغول ، القاهرة : دار الفكر العربي د.ت ، ص 303) وهو ما أوردته الكاتبة إيلين بور في قولها أن ماركو بولو قد اكتشف بلاد الصين في القرن الثالث عشر وهو على قيد الحياة ، واكتشف أميركا في القرن الخامس عشر بعد وفات(Eileen power : Medieval People , London , 1939, P. 67).

ونعود لماركو بولو ، الذي يصور قوبلاي خان ، بالشخصية التي تحترم الأديان فهو يأمر بتعطير الانجيل في عيد الفصح، ويقبله بخشوع ويامر كافة النبلاء بأن يحذو حذوه ، ويضيف ماركو بولو ، إلى ان الخان كان يفعل نفس الشيء في كل الأعياد المسيحية، وحتى في اعياد المسلمين واليهود والوثنيين(ماركو بولو ، المرجع السابق، 2: 18).

في الواقع، فإنه من المعروف أن بلاط الخان المغولي في قراقورم ومنذ عهد جنكيز خان، تواجدت فيه مجموعة من المرشدين والمستشارين ، منهم المسلم والمسيحي والبوذي وعبدة الأوثان(فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، المرجع السابق ، ص 153) ، وبذلك فإن الخانات المغول وأبنائهم ، كانوا على إطلاع على كافة الأديان من سماوية ووضعية ، وعلى الكثير من عادات وتقاليد وأعراف وأنظمة الشعوب المختلفة التي عرفت في عصرهم(فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، المرجع السابق ، ص 154).

وظهر احترام الأديان عند المغول ، من خلال قانون الياسا(قانون الياسا : هو مجموعة القوانين والأنظمة والقواعد التي وضعها جنكيز خان – الجويني ، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي ، 1: 61) الذي ضمّ بعض القواعد التي أثبتت اهمية وقدسية الديانات واحترام أتباعها ، وهو ما أورده الجويني : ... ولما لم يكن معتقداً بدين معين (جنكيز خان) فإنه لم يتعصب لملة على ملة ، تاركاً المرء وما يعتقد ، في حين أن علماء كل أمة وزهادها مكرمون معززون ، ويعدون إكرامهم وسيلة للتقرب إلى الله ، وهم ينظرون إلى المسلمين نظرة توقير ، ويعزّون الرهبان وعبدة الأوثان أما أولادهم فكانوا مخيرين بالدين الذي ينتمون إليه، فبعضهم تقلد شعائر الاسلام ، وبعضهم سار سيد النصارى ، وطائفة عبدت الأوثان ، كما ظلت فئة تعتقد إعتقاد أجدادها القدماء فلم تمل إلى دين معين، ولم تكن طائفة تدخل في الدين وتتعصب له، بل تتقلده وتسير على تعاليمه"(عطا ملك الجويني ، تاريخ فاتح العالم جهانكشاي ، ترجمة محمد التونجي ، دمشق دار الملاح ، ط1 ، 1985 ، 1 : 63) .

في الواقع فإن قوبلاي خان، الذي عرف بثقافته وتعليمه، حتى فاق مع أخيه هولاكو أقرانهم من الأمراء المغول ، كان معجباً بالديانة البوذية(البوذية : انتقلت البوذية من الهند إلى الصين في عهد الامبراطور مينغ تي من سلالة الهان الذي حكم بين الأعوام 58 و75م) ، التي كانت

منتشرة حينها في الصين إلا أنه لم يتخلّ ، ظاهرياً كما يبدو، عن الديانة الشامانيه (*)، التي هي ديانة المغول.

ونعود إلى ماركو بولو ، الذي يأتي على ذكر كيفية اختيار الخان للسراري ، فهو يرسل الموظفين المختصين في كل عام إلى بلاد " التانجوت "(*) فيجمعون له أربعماية " من أملح الشواب فتنة وفق تقدير الجمال المبلغ إليهم فيما لديهم من تعليمات، عبر فحص يجري لهن(ماركو بولو ، المرجع السابق، 2: 24).

بعدها يرسلن إلى الخان ، ليجري فحص آخر عليهنّ ليحتفظ " لمخدعه الخاص بثلاثين أو أربعين أو ستين تقديراً أعلى منهن(ماركو بولو ، المرجع السابق، 2: 24).

ويتسآل ماركو بولو : " ألم يكن أهل تلك الولاية يشعرون بمضض لأخذ الملك بناتهم ؟، فيجيب قائلاً : " كلا بكل تأكيد ، إذ انهم ، على العكس ، كانوا يعدون ذلك فضلاً وتشريفاً لهم"، فأبنتهم قد تصبح الامبراطورة وسيكون لها مركزاً مرموقاً في قصر الخان(ماركو بولو ، المرجع السابق، 2: 25).

أما عن مدينة الخان، فيورد ماركو بولو ، انه يقع في وسط المدينة " جرس كبير ، معلق في بناء مرتفع، يدقونه كل ليلة ، ولا يجرؤ إنسان بعد الدقة الثالثة أن يتواجد في الشوارع إلا أن يكون مضطراً تحت دافع ملح"(ماركو بولو ، المرجع السابق، 2: 34).

بعدها يتطرق ماركو . إلى ذكر ، " عدد العاهرات اللائي يتجرن بأعراضهن مقابل المال.... خمسة وعشرين ألف بغي وقد جعل على كل مائة وكل ألف من هؤلاء البغايا ضباط مشرفون يأتمرون بأوامر قائد عام ، ويشرح ماركو بولو السبب في ذلك، وهو لوضعهم في خدمة السفراء الذين يخدمون الخان، الذين " ولكي يعاملوا بأبلغ تكريم، يؤمر القائد بتزويد كل فرد من أفراد

السفارة ، كل ليلة بإحدى هؤلاء العاهرات التي يجري تغيرها بالمثل كل ليلة، وهي خدمة لا يتقاضين عليها أي أجر ، نظراً لأنها تُعدّ شبه آتاوة عليهن أداؤها للعاهل"(ماركو بولو- المرجع السابق ، 2 : 34 – 35.).

ثم يتحدث ماركو بولو عن شدة الخان في تطبيق النظام من خلال واقعة حدثت أثناء وجوده حيث قام بعض من السكان المحليين المسلمين بقتل أحد مستشاري الخان، والعقوبة التي انزلها بهم، وكيف أن قوبلاي وبعد ان ثبت من خلال التحقيقات أن مستشاره كان سيء السيرة هو وأولاده، أصدر أوامره بنبش قبره وإلقاء جثته في الشارع " لكي تنهشها الكلاب وتمزقها إرباً ، كما صادر ثروته ، وامر بان تسلخ جلود أبنائه أحياءً (ماركو بولو- المرجع السابق ، 2 : 36).

هذه الطريقة في العقاب، ليست جديدة عند المغول، فمن المعروف أن قانونهم" الياسا " يورد قواعد شديدة القسوة في إنزال العقاب بالجاني ، مهما كان ، وهي من عادات وتقاليد المغول التي قوننها ونظمها جنكيز خان(- فاسيلي بارتولد ، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي ، ترجمة صلاح الدين هاشم ، الكويت ، ط1 ، 1981، ص 113).

ومن المعروف، أن بلاط خانات المغول، عرف الكثير من الوشايات التي قامت بين الوزراء والمستشارين والقادة، الذين كانوا يحقدون على بعضهم البعض ، من الأمثلة على ذلك ، وشاية الوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني ، على وزير الايلخان أولجايتو محمد خدابنده (ت 716 هـ/1316 م) ، حيث أمر الايلخان بقتل وزيره سعد الدين ومن معه في بغداد من نوابه(عباس العزواي ، العراق بين احتلالين، بغداد ، مطبعة بغداد 1935، 1 : 417 – 418) كما قتل الوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني وولده عز الدين في عهد الايلخان أبو سعيد بهادرخان (ت 736هـ/1335م)، وأرسل

رأسه إلى تبريز " وصاروا يطوفون به ويلعنونه ويقولون أن هذا رأس يهودي بدّل كلام الله" ، وذلك بوشاية من الوزير تاج الدين علي شاه(ماركو بولو - المرجع السابق ، 1 : 45).

كما وفي عهد آرغون بن آباقا(ت690هـ/1291م) ، أمر بقتل شمس الدين محمد الجويني، صاحب الديوان ، وأفراد عائلته(فؤاد الصياد، مؤرخ المغول الكبير ، القاهرة : دار الكتاب العربي 1967، ص61).

في الواقع، فإنه كان كل من له غاية في الوصول إلى منصب ما، يعمد إلى إظهار المودة للخان وذكر مساوئ خصمه كي يوغر صدر الخان عليه ، فيعينه مكانه حتى ولو كان ذلك عبر تلفيق التهم التي قد تكون نتيجتها الاعدام بحق المشكوك بولائه.

ثم يتوسع ماركو بولو ، في وصف حياة الخان، وذكر حرسه الشخصي ، الذي بلغ إثني عشر الف فارس، يطلق عليه إسم كاستيان ومعناها " الجند المخلصون لسيدهم" (ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2 : 42) والطريقة التي يعقد بها الخان قوبلاي مجالسه العامة(ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2 : 43) كما يصف عيد ميلاد قوبيلاي، الذي يقع في الثامن والعشرين من أيلول ، حيث يحتفل به " جميع رعايا الخان الأعظم وهذا هو أعظم أعيادهم، بعد استثناء العيد الذي يقام في رأس السنة"(ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2 : 47) ، وهذا العيد الأخير يقع في الأول من شهر شباط من كل عام ،و هم يعتبرونه بداية السنة عندهم ، " ولهذه المناسبة جرت عادة الخان ، وكذا كل رعاياه، بمختلف بلادهم، أن يرتدوا البياض، الذي هو حسب معتقداتهم علامة الحظ السعيد(ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2 : 49).

ويختتم الاحتفال بهذا العيد ، حيث " يقاد أسد إلى حضرة جلالته،و هو من بالغ الاستئناس بحيث يصبح مدرباً على ان يرقد عند قدميه"(ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2 : 51).

ومع حلول فصل الشتاء، يضيف ماركو بولو ، يعطي الخان أوامره " بخروج جماعات القنص ... للصيد بجميع الأقاليم... ويطالب حكام النواحي أن يرسلوا إلى المقر الامبراطوري جميع أنواع الصيد في اكبر أحجامها(ماركو بولو – المرجع السابق ، 2: 52).

ويعطينا ماركو بولو ، صورة عن مشاهد الصيد التي كان يقوم بها قوبيلاي ، وحيوانات الصيد التي كانت ترافقه ، فللخان " الكثير من الفهود التي يحتفظ بها بقصد مطاردة الغزلان فضلا عن الكثير من الأسود ..."

ويصف ماركو بولو ، مشهد الأسود التي تلاحق الحيوانات، : " وأنه لمنظر رائع ، ذلك الذي يتجلى ، عندما ينطلق الأسد ليعقب الحيوان، وحين يشاهد التلهف الوحشي والسرعة الخاطفة التي يدركه بها"(ماركو بولو – المرجع السابق ، 2: 53).

ويضيف ماركو بولو إلى حيوانات الصيد لدى الخان " نسوراً دربت على الانقضاض على الذئاب، وهي من الضخامة والقوة بحيث لا يستطيع ذئب مهما بلغت ضخامته من براثنها(ماركو بولو – المرجع السابق ،2 . 54).

وبعد رحلة الصيد التي يقوم بها الخان في شهر آذار(ماركو بولو – المرجع السابق ، 2: 56) " يعقد الخان الأعظم عند عودته إلى عاصمته جلسة عظيمة وفخمة للبلاط، تستمر ثلاثة أيام يأدب أثناءها المآدب، أو يقدم الملهيات والتسليات إلى كل من يحيط به"(ماركو بولو – المرجع السابق ، 2: 62).

من الجدير ذكره، أن الصيد عند المغول عادة يدأبون عليها في كل عام ، وقد فرض جنكيز خان الصيد على الجيش، فكان الصيد يقام في موسم الشتاء مع نزول الجليد وينتهي مع ظهور العشب، وهي الفترة التي تبدأ فيها بشن الحرب ، لكن في الحالات الطبيعية حيث لا حروب

كان الصيد عادة عندهم ، حيث يشارك الخان وأبنائه وأفراد العائلة ، والقادة كلهم في رحلات الصيد(ثروت عكاشة ، إعصار من الشرق ، القاهرة : دار الشروق ، ط5 ، 1992، ص 100) .

بعدها يصف لنا ماركو بولو نظام الدولة الاقتصادي، فيذكر العملة الورقية التي يصدرها الخان، وطريقة صنعها ، فيقول : " فإنه يامر بنزع اللحاء من أشجار التوت ، التي تستخدم أوراقها لتغذية دودة القز، ويأخذ منها تلك القشرة الداخلية الرقيقة التي تقع بين اللحاء اليابس الأخشن وخشب الشجرة ، فتنقع تلك القشرة ثم تدق بعد ذلك في هاون ، حتى تتحول إلى عجينة يصنع منها الورق... فإذا أصبح معداً للإستعمال ، امر به فقطع ليكون نقداً ذا أحجام مختلفة ، وهو مربع تقريباً ، ولكن طوله أطول قليلاً من عرضه" (ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2: 64).

كما ان الخان يكلف مجموعة من الموظفين من أصحاب الخبرة لفحص السلع التي تدخل إلى الأسواق، من خلال القوافل التجارية ، الآتية من مختلف المناطق ، وتحديد قيمة تلك السلع" التي ينبغي أن تباع بها، ثم يسمح بمكسب معقول يضاف إلى المبلغ الذي قدّرت به البضاعة"(ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2: 65).

ثم يصف لنا ماركو بولو مجلس الضباط المعين من قبل الخان للإشراف على الجيش، ومجلس الاثنا عشر الذين يتولون شؤون الامبراطورية بشكل عام ، ويظهر هؤلاء وكأنهم مجلس للوزراء يتبع الخان بشكل مباشر ، ويتولون سلطات عليا ، فهم يملكون سلطة " اختيار الأفراد الواجب تعيينهم حكاماً في الولايات العديدة " ، كما ان لهم حق الاشراف " على كل موضوع يتعلق بجباية الضرائب... كما في يدهم الهيمنة على كل مصلحة أخرى من مصالح الدولة، باستثناء واحد فقط هو ما يتصل بالجيش من امور" (ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2: 68).

أما طرق التواصل بين الأقاليم والولايات داخل الامبراطورية ، فيأتي ماركو بولو على ذكر " دور البريد" ، ويطلق عليها اسم " دور راحة للمسافرين "، هي عبارة عن " مبان ضخمة وجميلة " وفي هذه المحطات أربعماية من جياد الخيل كلها في حالة استعداد مستمر ، حتى يتمكن جميع الرسل الذاهبين والغادرين في خدمة الخان الأعظم وأعماله ، وجميع السفراء من الحصول على ابدال ويزودوا"(ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2:966).

ويهتم الخان بتنظيم هذه الطرق العامة وتزيينها ، " فيأمر بغرس الأشجار على جانبي الطرق العامة" ولهذه الأشجار فوائد عديدة، فهي " تساعد، فضلاً عما تمده من ظل في الصيف"، تساهم أيضاً في " توضيح الطرق [للمسافر] عندما تكتسي الأرض بالجليد" [شتاء].

أما الطرق التي تمر من خلال الصحاري الرملية ، او من خلال الجبال الصخرية، " حيث من المستحيل غرس الشجر، أمر جلالته فوضعت على جانبي الطرق أحجار وأقيمت أعمدة لتكون بمثابة ... علامات لهداية المسافرين "(ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2: 77).

وبعد هذا الوصف لنظام الدولة وتنظيمها في عهد الخان الأكبر قوبيلاي خان، يُظهر ماركو بولو مدى إيمان الخان بالمنجمين والعرّافين، والذي يُقدر عددهم في عاصمة الخان وحدها بخمسة آلاف " يتولى الخان الأعظم إمدادهم بالطعام والكساء بنفس الطريقة التي يعول بها العائلات الفقيرة " ،ومع كل من هؤلاء المنجمين والعرافين إسطرلاب " تصور عليه علامات الكواكب" ، عبر جداول يكتشف عبرها " ما سيكون عليه حال الجو " . هؤلاء المنجمون يتنبأون بالظواهر الخاصة بكل شهر (رعد ، عواصف ، زلزال ، امطار عنيفة ، انتشار الأمراض ، الوفيات، الحروب ، الخلافات والمؤامرات).

ويضيف ماركو بولو ، ان هؤلاء " يكتبون تنبؤاتهم عن السنة داخل مربعات صغيرة ، ويبيعونها"(ماركو بولو ، المرجع السابق ، 2: 82).

ويبدو من خلال وصف ماركو بولو أن هؤلاء العرّافين هم كهنة الديانة الشامانية ، وهي من الديانات الوثنية ، التي كانت منتشرة بين المغول ، وتتمثل في عبادة كل ما يخشونه أو يرهبونه ، من ظواهر الطبيعة ، واتباع هذه الديانة يؤمنون بالقوى السحرية ، وللكهنة الشامانيين خبرة بالسحر والتنجيم ، وتحضير الأرواح لكشف الغيب والتنبوء بالمستقبل(فؤاد الصياد ، المغول في التاريخ ، المرجع السابق ، ص 335).

وينتقل ماركو بولو إلى وصف دين المغول ومعتقداتهم وهي على الأرجح البوذية ، حيث أن قوبلاي خان، ومع أنه كان يحترم كل الأديان ، إلا انه سعى إلى نشر البوذية على حساب الديانة الطاوية "((*) الديانة الطاوية: مؤسسها لاوتسو (ولد 604 ق.م) وهو فيلسوف صيني ، وهذه الديانة تدعو إلى السكون وعدم التدخل في شؤون الناس– أديب صعب، الأديان الحية، المرجع السابق ، 2005 ، ص 71) " مع الحفاظ على الفلسفة الصينية العقلانية"(دانييل إليسيف ، تاريخ الصين ، مرجع سابق ، ص 109).

ويؤمن أتباع هذا الدين بالولادة الثانية " وأنه تبعاً لمسلك الفضيلة أو الشر الذي اتبعه أثناء حياته، ستكون حالته المستقبلة بإطراد أفضل أو أسوأ (ماركو بولو ، المرجع السابق، 2: 84).

بعدها ينتقل ماركو بولو وباستفاضة في الحديث عن ولايات مملكة قوبلاي خان وأبرز المدن فيها ، وبعض العادات والتقاليد المنتشرة بينهم.

ثم يختتم ماركو بولو رحلته داخل بلاد الصين في مملكة قوبلاي خان، حفيد جنكيز خان ، فبعد سبعة عشر عاماً في خدمة الخان ، قرر البنادقة الثلاثة العودة إلى البندقية ، خصوصاً مع خشيتهم من موت الخان الذي كان يعطف عليهم ويقربهم منه، ألا أنهم خشوا من أن يحرموا من الامتيازات التي حصلوا عليها من بعده.

وكان قوبلاي خان يرفض السماح لهم بالمغادرة ، إلى ان أوتيت الفرصة ، عندما طلب أرغون خان(*) ، خطبة إحدى فتيات القصر، وكان عليهم نقلها بحراً، فطلب من البنادقة الثلاثة، نظراً لمهارتهم في فنون الملاحة، مرافقة السفارة إلى فارس، فكان (أرغون خان: حفيد هولاكو شقيق قوبلاي، وهو إيلخان بلاد فارس – برتولد شبولر ، مرجع سابق، ص 172) الديانة الطاوية: مؤسسها لاوتسو (ولد 604 ق.م) وهو فيلسوف صيني ، وهذه الديانة تدعو إلى السكون وعدم التدخل في شؤون الناس– (أديب صعب، الأديان الحية، المرجع السابق ، 2005 ، ص 71)

والجدير ذكره ، ان فترة حكم أسرة جنكيز خان وأحفاده، عرفت الرحلات التي قامت بها الأميرات المغوليات من الصين إلى فارس ليتحولن إلى عرائس للأمراء المغول في بلاط إيلخانات فارس، وكان يرافق هذه الرحلات عدد من الخدم والأتباع(– برتولد شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، المرجع السابق ، ص 69).

إلا ان قصة انتقال الأميرة من بلاط قوبلاي إلى بلاط إيلخانات فارس ، تثير عند بعض المؤرخين، بعض علامات الاستفهام حول مصداقية ماركوبولو وصدق روايته ككل حول الرحلة إلى الصين، وما جرى معه هناك.

وتورد فرنس وود ، الباحثة الانجليزية ، ان قصة انتقال الأميرة " كوجاتين " من الصين إلى بلاد فارس، وردت عند رشيد الدين الهمذاني ، كما في نص صيني رسمي، إلا أن الروايتين لم تأتيا على ذكر وجود أوروبيين مرافقين لهذه الرحلة، مما يثير عدد من علامات الاستفهام ، هل أن ماركو بولو قد بالغ بذكر أنه كان من الطبقة المقربة من قوبيلاي خان، أو ان رشيد الدين قد قصد من وراء عدم ذكرهم، كونه كان متحاملاً على الأوروبين!!، وقد تكون هذه القصة مقتبسة من مصدر آخر ، وهنا تتساءل " وود " : " فإن الشيء الثاني الذي وجدته بالغ الاثارة لدى

النظر إلى النص في مجمله هو انه، فيما عدا المدخل، لا يتضمن إلا القليل جداً من الاشارة إلى الأخوة بولو أنفسهم ؛ إنه عمل جغرافي أو تاريخي أكثر بكثير من كونه وصفاً شخصياً لأشياء تمت رؤيتها"(فرنس وود، ماركو بولو هل وصل إلى الصين، ترجمة فاضل جتكر ، دمشق : قدمس للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1999، ص 54).

في الختام ، ينطلق البنادقة من فارس إلى البندقية التي وصلوها عام 1295 م وخلال الطريق سمعوا بخبر موت قوبلاي خان(ماركو بولو ، المرجع نفسه، 1: 18).

وفي البندقية التي وصلوها لم يصدق أهلها قصص آل بولو ، إلا أن هذه الأسرة ، ونظراً لكونها أسرة غنية، فقد شاركت في إعداد سفينة قتالية ، أثناء الحرب مع مدينة جنوى، وكان ماركو بولو على متنها، إلا أن أسطول البندقية هزم أمام جنوى عام 1296م ، ووضع ماركو بولو في السجن مدة ثلاث سنوات ، يقال أنه خلالها أملى كتابه على شخص يدعى " رستيكان " من مدينة بيزا ، داخل السجن، ومع عودته إلى البندقية عام 1299 م، تزوج ، ولم يعرف عنه شيئاً بعدها(ماركو بولو - المرجع السابق، 1 : 18- 19).

<u>– من وضع كتاب ماركو بولو؟</u>

ان عدم ورود ذكر لماركو بولو، في الوثائق الصينية وحتى المغولية أثار الكثير من الشكوك حول قصة هذه الرحلة إلى الصين وخصوصاً أن ماركو ، حسب القصة ، كان مقرّباً من الخان شخصياً(فرنس وود، المرجع السابق، ص 183)، مما أثار الشك بأن يكون ماركو بولو قد أعاد سرد بعض القصص أو الأحداث التي وقعت فعلاً في الصين، خلال حكم قوبيلاي خان، مع طرح إمكانية أن يكون آل بولو قد وصلوا فعلاً إلى بكين ، إلا انهم لم يكونوا في الموقع الذي ذكره ماركو في رحلاته ، وبالتالي فإن ماركو بولو اعتمد على المرويات التي نقلها عن آخرين ،

حول مدن الصين وما ورد في رحلاته من عادات وتقاليد وقصص (فرنس وود، ماركو بولو هل وصل إلى الصين ، المرجع نفسه ، ص 189) .

والتساؤل الثاني، حول مصداقية رحلات ماركو بولو كانت من خلال كاتب القصة نفسه، " روستيتشيللو البيزوي " ، الذي كان داخل السجن نفسه الذي تواجد فيه ماركو بولو ، وقد أسره الجنويون عام 1284 م، بعد معركة بحرية وقعت بين مدينتي بيزا وجنوى(فرنس وود، ماركو بولو هل وصل إلى الصين ، المرجع نفسه ، ص 63) وهو احد كتاب القصص المعروفين ، وكان مقرباً من الملك إدوارد الأول ، ملك بريطانيا، ورافق هذا الأخير في حملته الصليبية إلى عكا بين الأعوام 1270 – 1273 م. وقد لاحظ أحد الباحثين وأثناء

المقارنة بين رحلة ماركو بولو، والروايتين التي وضعهما روستيتشيللو ، عن المغامرات الأسطورية للملك آرثر ، عن أوجه شبه بينها، مما يدّل على ان روستيتشيللو هو الذي وضع قصة رحلة ماركو بولو خصوصاً وأن من يقرأ هذه القصة يلاحظ أن هناك من يصف ما رآه بولو أو شارك فيه ، وقد يكون ذلك عائد إلى التأليف المشترك بين شخصين للقصة (فرنس وود - المرجع السابق، ص 64- 65).

وفي الختام وبغض النظر إن كانت قصص ماركو بولو هذه حقيقة أو من الخيال ، وكون معاصروه أتهموه بأنه راوية قصص(فرنس وود - المرجع السابق، ص67).

إلا انه لم يتراجع عن قصته هذه حتى آخر لحظة من حياته، بل أنه يجيب بعدما سُئل عن حقيقة ما رواه حول رحلته إلى الصين : " إني لم اذكر في كتابي نصف ما شهدته(ول ديورانت ، قصة الحضارة، المرجع السابق، 4: 218) وعلى الرغم من كل ما ورد يبقى ماركو بولو يمثل العلاقة التي ربطت بين الصين وأوروبا في العصور الوسطى، فهو الذي عبَر المسافات، وانتقل بين الاختلافات، فكان مُبشراً ثقافياً وحضارياً ، " ادخل السباغيتي الايطالية

إلـى الصـين ، والمعكرونـة المسـطحة إلـى إيطاليـا، " فضـلاً عـن اعتبـاره صـاحب الفضـل فـي الايحـاء بـ(البوظـة) الايطاليـة ، وحتـى اليـوم لا يـزال كتـاب مـاركو بولـو ، يعتمـد فـي الأبحـاث الأكاديمية عن الصين في العصور الوسطى ، إن كان حقيقة أم انه نقل عن كتاب للرحلات أو انه من نسج الخيال، إلا انـه أورد معلومـات قيمـة ، تؤكـد المصـادر عـن تلـك المرحلـة مصـداقيتها بغض النظر إن كـان مـاركو بولـو شـارك فيهـا أم أنـه لـم يشـارك(فـرنس ووود - المرجـع السـابق، ص 16).

امبراطورية المغول